# المدينة الصحراوية بأي معنى؟ مقاربة للمفهوم

# The desert city: in what sense? An approach to the concept

بشير طلحة [1*]

[1]جامعة عمار ثليجي بالاغواط (الجزائر)، mn.talha@gmail.com

تاريخ الاستلام:2021/07/16 تاريخ القبول : 2021/08/11

**ملخص:** تسعي هذه الورقة الى الوقوف عند مدلول مفهوم المدينة الصحراوية، من خلال البحث عن المتغيرات المتحكمة في صياغة المفهوم، والتي ترتبط بدرجة اولي بمتغيرات مجالية ومناخية، ولكن هذا لا ينفي وجود متغيرات لها نفس المكانة في تحديد ملامح المدينة الصحراوية، كما لا يمكن إهمالها والتغاضي عنها، وهي متغيرات مرتبطة بالسياقات الاجتماعية والتاريخية لتشكل هذه التكوينات العمرانية التي تختلف مضمونا وشكلا عن مثيلاتها في كثير من مناطق العالم، بل تكاد تنفرد بها دول المغرب وتصبح خاصية ملازم لها، وهذا ما صعب ظهور مفهوم المدينة بمكوناتها المتعارف عليها، مقارنة بمفهوم القصر والواحة، وعليه فان هذه المساهمةتقترب من المفهوم من خلال الرجوع الى الحقل السوسيولوجي، والذي يساعد في بلورة المفهوم من جهة و الواقع الذي يعطي تباينات واضحة في نماذج مختلفة من تكون هذه المدن، نظرا لشساعة الفضاء الصحراوي و تمايزاتها، التي لا تنجلي إلا بتقديم تصنيفات تقلص من صعوبة بناء مفهوم يتم تعميمه والتراضي حوله، وهذه في حد ذاتها جزء من إشكالية الاقتراب من المفهوم.

**الكلمات المفتاحية:** المدينة الصحراوية؛ الصحراء؛ المدينة التقليدية؛ القصر.

**Abstract :** This paper seeks to stand at the meaning of the concept of the desert city, by searching for the variables that control the formulation of the concept, which are primarily related to spatial and climatic variables, but this does not negate the existence of variables that have the same status in determining the features of the desert city, and they cannot be neglected or overlookedwhich are variables related to the social and historical contexts to form these urban formations that differ in content and form from their counterparts in many regions of the world, but are almost unique to the countries of the Maghreb and become an inherent characteristic of them,.
and this is what makes it difficult for the concept of the city to emerge with its recognized components, compared to the concept of the palace and the oasis, and accordingly This contribution approaches the concept by referring to the sociological field, which helps in crystallizing the concept on the one hand, and the reality that gives clear contrasts in the different models of the formation of these cities, given the vastness of the desert space and its differentiations, which can only be revealed by introducing classifications that reduce the difficulty of Building a concept that is generalized and consensual around it, and this in itself is part of the problem of approaching the concept.

**Keywords:**desert city; desert; palace; traditional city.

*المؤلف المرسل

**مقدمة :**

ليس من السهل الوصول الى تحديد دقيق لمفهوم المدينة الصحراوية نظرا لعدة اعتبارات، من بينها عدم وجود دراسات كافية تناولت الموضوع، والأمر الثاني هو أن مفهوم المدينة الصحراوية اصطلاحا مركب من كلمتين لكل منهما تحديداته،التي يصعب ضبطها و الاتفاق حولها، وهذا ما يزيد في صعوبة الوصول إلى تحديد جامع ومانع لهذا المفهوم، وعليه فان هذه المحاولة، تسعي الى الاقتراب من المفهوم انطلاقا من أخذها لهذه المحاذير، كما انها تتخندق في إحدى التخصصات العلمية التي جعلت المدينة موضوعا لها منذ ما يقرب من قرن ونصف، ولا تزال تسعي إلى إيجاد تفسيرات وتحليلات علمية في ظل الأطر العامة لمبادئ علم الاجتماع، ومنه فإننا نقدم الموضوع وفق الطرح التالي :

## 1.المدينة الصحراوية (المفهوم ودلالته) :

"المدينة والصحراء شيئان متناقضان"(Cote,2005,p05 )، فمفهوم المدينة يشير إلى التمدن والاستقرار والحضور وهو نقيض المغيب بينما يشير مفهوم الصحراء إلى التصحر والقفر والخلاء.

فالمدينة نسبة للصحراء وبالتالي هي أكثر تحديدا من غيرها من التعريفات التي تنسب المدن الى العروبة كأن نقول المدن العربية أو الإسلامية، والتي أخذت نقاشا طويلا بين مؤيد ومعارض، وبالتالي فهي أكثر وضوحا إذ نسبتها ترجع للوسط الطبيعي و المتمثل في العوامل الجغرافية في المرتبة الأولي ممثلة في المناخ، وهي المدن الواقعة في الصحراء، وقد اعتبر بليز (pliez) أن تسمية المدينة الصحراوية أو المدينة في الصحراء هي نفسها (La ville saharienne, ou la ville au Sahara) (Kouzmine,2007,p17)، بينما إذا ترجمنا هذين المصطلحين إلى اللغة العربية فان المعني يتغير وتصبح المدن في الصحراء هي الإشارة إلى المدن الواقعة بالصحراء فهي مدن كغيرها من المدن إلى أن موقعها بالصحراء، بينما يشير مدلول مصطلح المدن الصحراوية إلى خصوصية لهذه المدن تميزها عن غيرها من المدن الأخرى بحيث ارتبطت بالصحراء مما يجعلنا نتساءل مرة أخرى عن هذه المميزات.

لكن قبل التطرق الى تحديد هذه الخصائص والمميزات، نود تفكيك المصطلح لعله يساعدنا في ايضاح الصورة ورفع اللبس عن المفهوم.

### 1.1.مفهوم المدينة :

من الصعب المماثلة بين خصائص مدينة القرن العشرين والقرون الوسطي او حتي القرن السابع عشر والثامن عشر، اذ من السهل تحديد مجال المدن التي كانت تحاط بالأسوار والتحصينات و التي تفصلها عن المجال الريفي المحيط بها، ولكن رغم ذلك نجد بعض الدراسات استطاعت أن تضع تحديدا لخصائص المدن التي كانت تميزها عن القري اذ كانت لا تخلو هي كذلك من الأسوار.يعرض المتخصصون جملة من الشروط و المميزات التي تحدد معني المدينة، وان كانت لا تلقي اتفاقا نظرا لاختلافات المعايير المتباناة في تحديدها والتي كان اولها، عدد السكان، ولكن هذا المعيار " الذي يبدو اكثر ملائمة لتحديد معني المدينة، لا يحقق اتفاقا نظرا، للاعتبارات التي تتبناها كل دولة، ففي الدنمارك تعتبر مدينة اذا تجاوز عدد سكانها 250 ساكن، فيما فرنسا تعتبرها 2000 ساكن مقابل مصر التي تحددها ب 11000 ساكن، و اليابان ب 30000 ساكن، فالاختلافات في تحديد مفهوم المدينة يرتبط بدرجة التحضر "(Fijalkow,2007,p128 )، وهذا ما يتوافق ونظرة الجغرافيين الذين يعتبرون المدينة هي التي تتوفر على " المجال والسكان ودور المدن " (بوجوقاريني، 1989، ص12)، فهي الأسس الثلاثة التي يعتمد عليها الجغرافي، فيما يتبني علماء الاجتماع معايير أخرى يتم من خلالها تحديد مفهوم المدينة، فهي مزيج بين عنصرين أساسين " العنصر الإنساني الاجتماعي و الجغرافي الفيزيقي، فهي في ذات الوقت إطار مادي ومركب اجتماعي ثقافي " (بومخلوف، 2001، ص36 )، فيما عرفها Yves Grafmeyer بأنها " رقعة جغرافية وسكان، إطار مادي ووحدة حياة اجتماعية، تجسيد لأشياء مادية وروابط من العلاقات بين الكائنات الاجتماعية"

(Grafmeyer, 2015 ,p6)، وهذا التعريف يتوافق تقريبا مع تعريف ريمون لودريRaymond Ledrut حيث اعتبرها "مجتمع معقد قاعدته الجغرافية محدودة نسبيا مقارنة بحجمها، أو التي عنصرها المجالي ضعيف كميا مقارنة بعناصرها الانسانية" (بومخلوف، 2001، ص37 ).

يظهر من خلال تعاريف علماء الاجتماع تركيزهم على الجانب الاجتماعي الانساني دون اهمال للمجال، باعتبار ان المجال ما هو الا انعكاس للمجتمع فالروابط الاجتماعية والعلاقات والتفاعلات التي تحدث داخل المجال والتي بدورها تنتج ثقافة خاصة في التعامل مع هذا المجال هي التي تساهم في تحديد مفهوم المدينة هذا عن البعد الاول لمفهوم المدينة الصحراوية، واذا كان هذا المفهوم يكتسي غموضا نظرا للأسباب السابق ذكرها، فان مفهوم الصحراء اشد تعقيدا، بحيث يصعب تحديده، ويمكننا عرض أهم ما ورد في تعريفه.

### 2.1.مفهوم الصحراء :

تعنى كلمة صحراء في اللغة العربية الأرض الجرداء وفي لسان العرب " هي الفضاء الواسع لا نبات فيه " (ابن منظور، 2008، ص 528)، كما تعبر عن الأرض الواسعة نادرة الماء مرتفعة درجات الحرارة ولا حياة فيها، ويشير كذلك إلى السهل غير المزروع وهو يقابل في اللغة الفرنسية (Désert) إلا أن عبد الرحمان موساوي يرى بان كلمة " صحراء المصطلح الجغرافي المستعمل في الفرنسية لا يعني كلمة (Désert)، هذا الأخير الذي يعنى الخلاء وليس الصحراء التي تعنى الأراضي غير المزروعة بمقابل الأراضي المزروعة "(Kouzmine, 2007, p 29)النقاش الذي أثير لم يكن حول المصطلح بقدر ما كان حول الحدود التي يمكن أن يطلق عليها هذا المصطلح (أي الصحراء)، فهناك اختلاف واضح بين عديد الكتاب حول حدود الصحراء منذ القدم وخاصة لدى الكتاب والرحالة العرب الذين كانوا أول من تكلموا عنها بحكم ارتباطهم بها فهم أدرى بخبياها وتكويناتها فهي البيئة التي انطلقوا منها، ونجد هذا التحديد لدي أول المؤرخين وأقربهم إلى عصر انتقال العرب إلى المغرب هو ابن عبد الحكم حيث أشار إلى أن " مصطلح الصحراء هو جزء كبير من الصحراء الشمال الإفريقية وهي توجد جنوب طرابلس "(Kouzmine, 2007, p 01) بينما كانت حدود الصحراء واضـــحة لـدى الإدريسي الذي عاش خـلال النصف الأول من القرن الثاني عشر، فاعتبر حدودها ممتدة من "جبال الأطلس الصحراوي شمالا و بلاد السودان جنوبا وشرقا فزان وغربا بلاد لماتة وصنهاجة، وبهذا لا منطقة الزاب ولا منطقة الجريد تعتبر جزء من الصحراء في نظر الكاتب "(Kouzmine, 2007 , p 02).

كما نجد عدم وضوح لا في المصطلح ولا في الحدود بالنسبة لابن خلدون خلال النصف الثاني من القرن الرابع عشر حيث يفرق " بين نيل نيجيريا و الأطلس الصحراوي انطلاقا من المناخ، فلم يقدم حدود واضحة، فالمغرب يتوقف عند العرق بمعني مناطق الكثبان الرملية التي تفصل بين بلاد البربر وبلاد السودان، فالواحات ومنطقة الزيبان المحيطة ببسكرة والجريد المحيطة بتوزر تقع كلها خارج الصحراء "(Kouzmine, 2007, p 02).

ونجد تفصيلا أكثر لدي الجغرافي حسن الوزان خلال بداية القرن السادس عشر يشبه إلى حد ما رأي ابن خلدون وان كان مصدره مأخوذ من " خرائط بطليموس (Ptolémée) "(Kouzmine, 2007, p 02)، فاعتبر أن " لفظ صحراء هو مرادف للخلاء أو البلاد الخالية وهذا لكونها مهجورة أو غير آمنة، فهو لا يعني دائما القفر الذي لا ماء فيه ولا نبات " (الوزان، 1983، ص149 ).

وعليه فقد حدد الصحراء " بالبلاد المعروفة عند اللاتينيين بليبيا ويطلق عليها بالعربية اسم الصحراء وتحدها شرقا تخوم الواحات وغربا المحيط ويجاور في الشمال نوميديا أي بلاد النخيل وفي الجنوب ارض السودان " (حسن الوزان، 1983، ص28 )، وبالتالي فقد استثني من الصحراء كل من إقليم سجلماسةقورارة وميزاب وتقرت و ورقلة وإقليم الزاب أي المدن الواقعة شمال الصحراء و اعتبرها تابعة لإقليم نوميديا.

#### 1.2.1. الصحراء في كتابات الفرنسين :

استمر هذا الإشكال المتعلق بضبابية ضبط الحدود حتى وقت متأخر لدى بعض الكتاب الفرنسين فقد اعتبر الكاتب الفرنسي فرومنتان (fromentain) أن " الصحراء تبدأ من بوغار على حدود التل التيطري جنوب لمدية " (Bisson, 2003, p10)، وهذا التحديد ساد خلال الفترة الأولي من الاحتلال الفرنسي للجزائر حيث يتم التفريق بين منطقتين " التل وسكانها مستقرون والصحراء بلاد البدو والرعاة، و هذه الأخيرة تضم المنطقة الواقعة بين التل والخلاء، أي المنطقة التي تعرف الآن بالهضاب العليا " (Capot-rey, 1953, p03).

واعتمادا على العديد من الأبعاد والمؤشرات التي فصلها كابوتري استطاع أن يرسم حدودا للصحراء اقرب إلى التقسيم الذي نتبناه حاليا (الخريطة رقم1)ومن بين هذه الأبعاد المظهر الخارجي الذي يميز الصحراء والمتمثل في الغطاء النباتي من خلال نوعية الشجيرات والنباتات التي تظهر في هذا المجال فقط وتنعدم في غيره، كما يعتبر البعد المناخي الذي يسود في هذه المناطق احد المتغيرات الأساسية للفصل بين ما يدخل في نطاق الصحراء وما يخرج عنه فالصحراء يسود فيها مناخ حار جاف تقل فيه نسبة التساقط، إضافة إلى هذه الأبعاد والمؤشرات هناك مؤشر حاضر بقوة نظرا لارتباطه بالحياة الاقتصادية والاجتماعية للأشخاص القاطنين بالصحراء، والمتمثل في "انتشار النخيل فهي مؤشر على البيئة الحارة التي تثمر فيها تلك الشجرة" (Capot-rey, 1953, p21) وعليه فقد رسم حدود المنطقة الشمالية للصحراء انطلاقا من هذا المؤشر.

كما أدرج مؤشر انتشار الإبل التي تعتبر الوسيلة الأساسية للتنقل داخل هذا المجال ويتلاقي في هذا الرأي مع ابن خلدون الذي اعتبر الإبل مؤشر رئيسي بالنسبة للبدو الموغلين في البداوة وهو ما اسماهم بالبدو الاقحاح، وان كان أثير نقاش طويل حول تواجد هذا الحيوان بالصحراء، "فالتغير التاريخي الجذري في الصحراء يتمثل في دخول الجمل والذي تم تقريبا نهاية العهد الروماني، اذ يمكن التمييز بين صحراوين (حسب تعبير غوتي)، صحراء قبل الجمل والصحراء بعد الجمل" (Gautier, 1908, p100).

كما ميز كابوتري بين حدين الحد الأول يتمثل في الحدود السهبية وهي قريبة من الحدود الصحراوية ويتم في الغالب الخلط بينها وبين الصحراء، فيما الحدود الثانية هي الحدود الصحراوية انطلاقا من المؤشرات السابق ذكرها.

**الخريطة (1) :توضح حدود الصحراء**

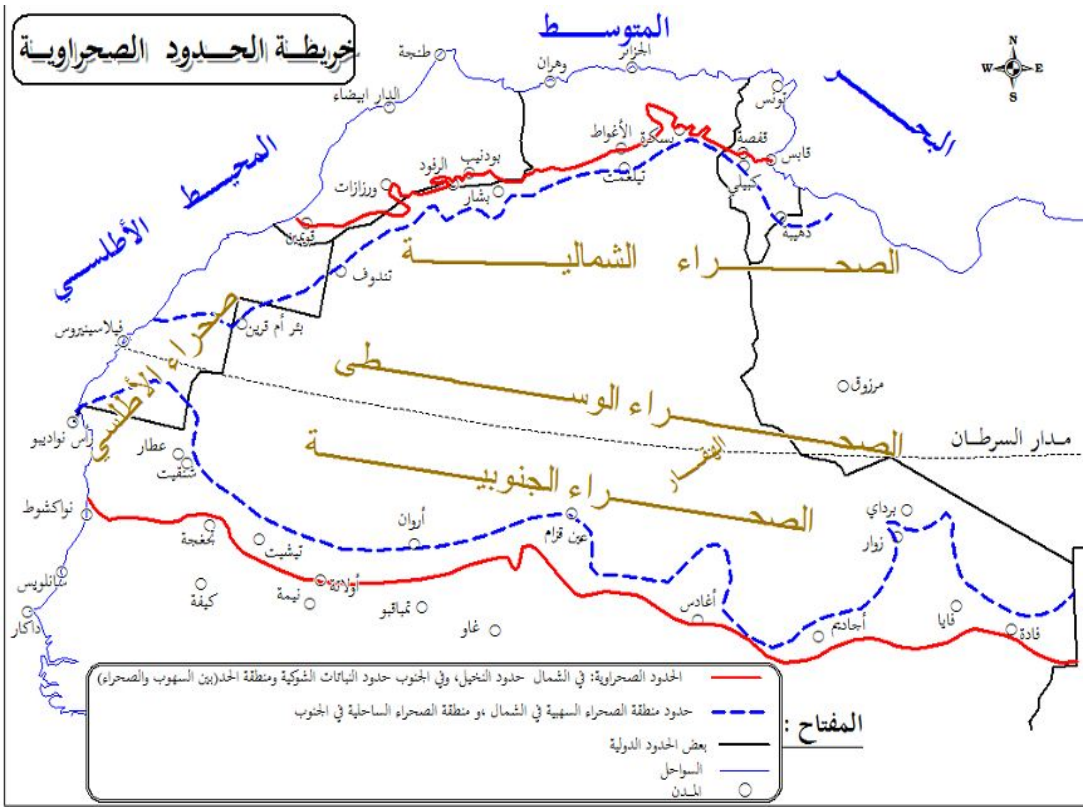


المصدر: (Robert Capot-rey, 1953, p20) بتصرف

وعليه فهناك "اختلاف بالنسبة للحدود الشمالية بين الجهة الغربية والشرقية هذه الأخيرة التي تتجه شمالا حتى خطي 15 29 بالنسبة لمنطقة قلمين بالمغرب و 30 34 شرقا عند مدينة قفصة، كما أن اتساع المنطقة من ناحية العرض يزيد كلما اتجهنا شرقا، فالمساحة الفاصلة بين مدينة قلمين ونواكشط تقدر بحوالي 1450 كلم غربا وبين قفصة واغاديس شرقا تقدر بحوالي 2000 كلم"(Capot-rey, 1953, p35 )، ونفس الشئ بالنسبة للحدود الجنوبية التي توصف بعدم الوضوح، "لكنها على العموم تنتهي عند الخط الذي يشكله امتداد هضاب النيجر والتي تتفق مع انتشار نبتة كرام كرام" (اسماعيل العربي، 1983،ص 13).

هذه التحديدات وغيرها اعتمادا على معايير مختلفة "(الطبيعية والمناخية والتاريخية و حتي السوسيوديمغرافية ) في رسم الحدود أثارت نقاشا طويلا بين المتخصصين ولم تحسم حسب بيسون(Bisson) الا خلال المرحلة الاستعمارية، حيث استطاعت توظيف العلم لصالح الميدان العسكري في رسم الحدود السياسية للصحراء"(Kouzmine, 2007, p 32.).

وانطلاقا من هذا تصبح المدن التي يصدق عليها مصطلح المدن الصحراوية هي المدن الواقعة على الحدود المتبناة في تحديد حدود الصحراء، ولكن هذا على المستوي الجغرافي او الطبيعي، وهي مؤشرات مهمة لايمكن اهمالها، تتدعم بمؤشرات اجتماعية اخرى، أثبتت تاريخيا من خلال التركيبة السكانية التي كانت تخضع للقبيلة كمحدد اساسي وفاعل في رسم حدود المدينة و مكوناتها، بل الى قيامها وانهيارها، باعتبار السلطة تتمركز في المدن كما اوضحت ذلك المقاربة الخلدونية، ولكن نحن امام تباين كبير بين جهات الوطن فيما يخص تشكل هذه المدن وخصائصها تاريخيا واجتماعيا، مما يصعب عملية التعميم، وعليه لا يمكن اعتبار المدن الموجودة داخل هذه الحدود في نفس الدرجة، لا من حيث عدد السكان ولا الرقعة الجغرافية ولا حتي التركيبة الاجتماعية وعليه نحن أمام أنواع عديدة من التراكيب العمرانية والتي يمكن تصنيفها اعتمادا على معايير معينة وهذا ما سنتطرق له في العنصر التالي.

**2. تصنيف المدن الصحراوية :**

تختلف معايير تصنيف المدن حسب التخصصات العلمية ويعد معيار الحجم أكثرها تداولا، رغم تأكيد علماء الاجتماع على أهميته في تفسير كثير من الظواهر وتوظيفاته المختلفة بما فيها الحضرية وعلى رأسهم مدرسة شيكاغو إلا أن هناك معايير تقف على نفس المستوي من الأهمية مقارنة به بل تفوقه أهمية في بعض الأحيان، وعليه فان تبني معيار واحد في تصنيف المدن الصحراوية لا يفي بالغرض على الأقل بالنسبة لهذه الدراسة بل ستتطلب عرض جميع محاولات التصنيف السابقة ومقارنتها والخروج بتصنيف يساعد على فهم خصوصية هذه المدن.

من بين أهم التصنيفات التي تبنت معيار الحجم في دراسة المدن الصحراوية هو تصنيف مار كوت (Marc Cote)، حيث صنف المدن إلى ثلاث طبقات انطلاقا من هذا المعيار (Cote, 2001, p87).

مدن كبيرة الحجم وهي المدن التي يتجاوز عدد سكانها 000 100 ألف نسمة تمثل مقر للولاية، وعاصمة جهوية مصغرة تتوفر على التجهيزات الخدماتية الأساسية للمواطن، وسبع مدن تستجيب لذلك وهي : بشار، الاغواط، ورقلة، بسكرة، تقرت، الوادي.

المدن المتوسطة : من 20000 الى 35000 الف ساكن وتمثل كل من قورارة المنيعة، تامنراست، أدرار.

الفئة الثالثة هي عبارة عن تجمعات صغيرة تشكل مدينة صغيرة تتكون من 3000 الى 15000 ساكن، وهي عديدة، كما يمكن ملاحظة حتى هذه اللحظة عملية انتقالها من الطابع الريفي إلى الحضري (في طور التحول).

في موقع أخر يعتبر مار كوت المدن الصحراوية تشكلت من خلال طريق القوافل وأخذت شكل المدن الواحاتية نظرا لان الواحة والماء عاملان أساسيان في تكوينها وهنا تدخل ظروف النشأة كمعيار أساسي في تقسيم تلك المدن، فمدينة الاغواط وبشار تستجيب لهذا المعيار فهي مدن واحتية بينما هناك "مدن أخرى نشأة دون واحة ودون قصر لان نشأتها حديثة وتمثل كل من تمنراست وحاسي مسعود بينما تنفرد مدينة غرداية بطابعها المعماري ذو الثقافة الحضرية" (Cote, 2001 ,pp97-98).

وانطلاقا من هذا يمكن اعتبار عامل الزمن محدد أساسي بالنسبة لحالة دراستنا فهناك مدن صحراوية نشأت خلال مرحلة متقدمة و عرفت تحضرا مبكرا مقارنة بمدن أخرى، مما اكسبها تقاليد حضرية، وتمثل كل من مدينة ورقلة بسكرة تقرت الاغواط غرداية، مقارنة بالمدن التي نشأت حديثا تمنراست ادرار بشار اليزي.

يقترح جون بيسون تسمية مغايرة للمدن الصحراوية يطلق عليها اسم مدن التعدين والمدن الفطرية، فغنى هذه المناطق بالثروات الباطنية مكنها من استغلالها المبكر، كالفحم الذي تم استغلاله منذ سنة 1917 بمدينة القنادسة وتم التخلي عنه في نفس سنة اكتشاف الحقل البترولي بحاسي مسعود أي سنة 1956، وهذه المدن (التعدين) كلها حديثة :أزويرات بشمال موريتانيا، حاسي الرمل و حاسي مسعود.

كما "عرفت مادة الملح خلال القرون السابقة أهمية لدي سكان تلك المناطق أمادرو شمال تمنراست مبيلما مدينة واحتية شمال النيجر وتمودني شمال مالي والأكثر شهرة بوركو بالتشاد، فتجارة الملح هي التي مكنت أو ساعدت على رسم المحاور والطرق الأولى للقوافل" (Bisson, 2003, p140) بينما يطلق مصطلح "مدن المحروقات على كل من مدينة حاسي الرمل وحاسي مسعود، مدن البترول (les villes du pétrole)، تسير على نفس وتيرة مدن التعدين الكلاسيكية وهي وجود مركز (قاعدة حياة) يعتبر هو الأصل" (Bisson, 2003, p140).

نجد هذا التقسيم لدى "هوليتز حيث قسم المدن في البلاد النامية إلى مدن منتجة ومدن طفيلية واعتبر أن المدن تكون منتجة إذا ما كان تأثيرها يعود بالفائدة على النمو الاقتصادي للبلد بينما المدن الطفيلية لها تأثير عكس ذلك" (الجوهري، 1994، ص381).

يظهر من خلال هذا التقسيم أن معيار الوظيفة هو المتبنى وان كان ما قُدم من قراءة للمجال الصحراوي اعتمادا على النشاطات الصناعية المبكرة والتي ارتبطت أساسا بتواجد الثروات ودورها في بروز مراكز وتجمعات أعطت لها صفة المدينة فيما بعد نتيجة الهجرة وتمركز اليد العاملة، إلا أن أكثر ما يؤخذ علي تصنيف بيسون هو صعوبة تعميم هذا النموذج خاصة بالنسبة للمدن الواقعة شمال الصحراء أو التي تفتقد للثروات الطبيعية.

وعليه فانه يمكن التمييز بين مستويين من المدن الواقعة بالصحراء بالنسبة لحالة الجزائر، مدن شمال الصحراء ومدن جنوب الصحراء.

**3. العلاقة بين المدينة الصحراوية والقصور الصحراوية :**

تبدو عملية تصنيف القصور الصحراوية والتي اعتبرت نمطا عمرانيا ساد لفترات طويلة جدا في الصحراء الجزائرية، ضمن الأنماط العمرانية المتعارف عليها مهمة صعبة حتى بالنسبة للمتخصصين نظرا لخصوصيتها وارتباطها بمجالات جغرافية خاصة، ولكن اقرب الطروحات كانت تلك التي حاولت البحث عن نقاط الشبه والاختلاف بين المدينة العربية الإسلامية (médina)والقصور ويمكن الاشارة في هذا الصدد الى محاولة الاستاذ حملاوي

(حملاوي، 2006، ص 32)، وهذا من خلال الاشارة الى بعض العناصر العمرانية التي تتواجد في كل من المدينة والقصر، وقد ناقش الباحث هذه الفكرة من خلال مقال له وخاصة العناصر الاساسية المكونة للمدينة ممثلة في كل من السوق والمسجد والزاوية (طلحة، 2016، ص ص94-97) هذه العناصر التي أثارت إشكالات حقيقة في تغير صورة المدينة، المسجد مع دخول الاسلام بداية من القرن السابع ميلادي، والزاوية خلال القرن الخامس عشر،الاول يشير الى فكرة المركزية وهي فكرة حاضرة تقريبا في جميع الحضارات، بينما الزاوية ساهمت في تغيير مكونات المدينة سواء على المستوي السياسي او الاجتماعي والاقتصادي، ولكن لايعني هذا انها كانت سببا في نشأة وتشكل القصور والمدن، الا في بعض الحالات التي يرجع فيها التأسيس الى مرحلة متأخرة، ولكن نحن هنا نتكلم عن تجمعات واشكال عمرانية سادت لعقود خلت بل تمتد الى عصور ضاربة في التاريخ.

كما نجد هذه المماثلة بين القصور و المدينة التقليدية تستند الى خصائص هذه الاخيرة كما اوضحها" كلود شالين" من خلال العناصر التالية (Kouzmine , 2007, pp 57- 58) :

-التركز الجغرافي للأنشطة التجارية والإنتاجية في منطقة السوق.

-كثافة النسيج المبني.

-الحضور الديني من خلال دور العبادة وأماكن التعليم.

-براعة الاستجابة الحضرية والمعمارية للعوامل المناخية وارتفاع درجات الحرارة والتي تتمثل في الطرق الضيقة والمساحات المفتوحة الداخلية والأسطح...الخ

هذه العناصر والتي يشكل السوق أهمها تغيب في القصور الصحراوية مما جعل "كوزمين" ينفي أية علاقة بين المدينة التقليدية والمدن الصحراوية بل اعتبر أن "المدن الصحراوية الجزائرية لم ترقي في يوم من الأيام الى مستوي المدينة (médina) بالمعني الحقيقي للكلمة، بل هي امتداد وتوسع مجالي للقصور فبسكرة تشكلت من خلال تجمع سبع قصور، فيما غرداية تشكلت من خمس قصور، وبالتالي المدينة انطلاقا من العناصر السالفة الذكر لم تتواجد بالصحراء الجزائرية" (Kouzmine , 2007, p 58).

يبدو هذا الحكم وإن كان في ظاهره أقرب إلى الصحة إلا أنه من الناحية الواقعية بعيد نوعا ما عن الحقيقة، صحيح أن المدن الصحراوية تشكلت عبر الزمن من تلاقي مجموعة من القصور مثلا مدينة غرداية، والتي يرجع أصل تسميتها إلى أحد القصور: بنورة، العاطف، بني يزقن،مليكة، أعطتنا مايسمي حاليا مدينة غرداية، وهذا يصدق على مدينة ورقلة وبسكرة ومدينة الأغواط (طلحة، 2006،صص 104-107).

لكن خلال بدايتها الأولي ومع تطورها برزت المدينة بجميع مكوناتها وخصائصها، بل برزت فيها العديد من العناصر المهمة كالسلطة السياسية التي تعتبر أساس نشأة وتكون المدينة في نظر ابن خلدون، فمدينة ورقلة وتقرت شهدت تاريخيا سلطنات مستقلة واعتبرت مراكز للحكم خلال تاريخها، بل برزت فيها عناصر المدينة العربية الإسلامية حتى من الناحية المرفولوجية والمعمارية، يصف الوزان مدينة ورقلة خلال القرن الحادي عشر بأنه كان يديرها "أمير يشرفونه كالملك، يعيل نحو ألف فارس من حرسه، ويجبي إليه من إمارته مائة وخمسون ألف مثقال" (الوزان، 1983، ص137).

كما يصف مدينة تقرت"بأنها تضم عدة قصور وقري وأماكن مأهولة على طول مسيرة ثلاثة أيام أو أربعة، كلها خاضعة لأمير تقرت، الذي أصبح يجبي منها مائة وثلاثين ألف مثقال، ولهذا الأمير حرس قوي من الفرسان ورماة القذائف والبنادق، يعطيهم أجرا مناسبا" (الوزان، 1983، ص136)، بل يؤكد ابن خلدون في صدد حديثه عن ورقلة بأنها بُنيت في بدايتها" قصورا متقاربة ثم استبحر عمرانها فصارت مصر"(ابن خلدون، 2006، ص117).

إن إشكالية التصنيف ترجع إلى عمليات المقارنة الآلية والمجحفة التي يلجأ إليها بعض الباحثين ولاسيما الباحثين الغربين، فالمدينة العربية نتعرف عليها من خلال مقارنتها بالمدينة الغربية الأوروبية وهى بالتالي بعيدة عن مفهوم التمدن نظرا لافتقادها لبعض خصائص المدينة الغربية، ونفس الشئ يقال عن المدينة الصحراوية هي بعيدة عن المدينة التقليدية لأنها تفتقد لبعض خصائصها، وعليه فان القيام بأي تصنيف يجب أن يأخذ بعده الشمولي والعملي بالاعتماد على الخصائص الواقعية التي تتخذ صبغة محلية، وتجدر الإشارة هنا إلى العملية التصنيفية فائقة الدقة والواقعية التي قام بها ابن خلدون خلال القرن الرابع عشر اعتمادا على مؤشرات واقعية،فقد صنف المدن إلى ثلاثة أنواع، انطلاقا من المدن الرئيسية أو المدينة الدولة (العاصمة) وهي التي يتمركز فيها الحكم" فاستقرار سلطان الدولة داخل المدينة يفضي إلى وصول المدينة إلى حالة متطورة، فتصبح المدينة الدولة مدينة حضارة، وهذا بعدما تستحكم فيها عوائد الحضارة" (سلامي وطلحة،2009،ص111)، وهناك المدن المتوسطة وأخرها المدن البدوية و "هي التي يغلب عليها طابع البداوة وتفتقد للحمامات والأسواق والصنائع "(سلامي وطلحة، 2009، ص108) كما ينعكس ذلك على عمرانها وطرق ومواد تشيدها، و استنادا لهذا التصنيف يمكن اعتبار المدن الصحراوية مدننا بدوية بتعبير ابن خلدون.

**الخلاصة:**

من خلال هذا العرض نستنتج ان مفهوم المدينة الصحراوية يحمل دلالات ومعاني خاصة تعكس بدرجة كبيرة المحيط الجغرافي والاجتماعي الذي تتواجد فيه، ولما لا السياق التاريخي الذي كان له دور كبير في تطور مفهوم المدينة، حيث نلحظ انعدام لهذا المفهوم بالمعني الحقيقي للمدينة خلال العقود التي خلت، و أن الذي أعطى مفهوم المدينة بمركباتها الحالية هو الاستعمار الفرنسي الذي سعى منذ استغلاله الأول للفضاء الصحراوي إلى تغيير طابع الهياكل العمرانية القديمة والتي كانت تتجسد في منظومة عمرانية منسجمة ومتكاملة، تمثلت في النظام الواحي الذي يتشكل بدوره من القصر والماء و نظام السقي و هو ما أعطانا ماسمي بالمدينة الواحتية، بعد المصطلح الذي كان يتداول كثيرا وهو القصور الصحراوية، فالقصر لايرقيإلى مستوي المدينة كما أنه لايعبر عن حالة البداوة بل مرحلة انتقالية بين البداوة والتحضر، وهذا مايتفقإجرائيا وعمليا مع المفاهيم المتداولة والتي احتفظ بها اللسان المحلي حتي وقت متأخر، فاطلق مصطلح القصورية على سكان القصور بمقابل العروبية الذين يسكنون البادية.

إذا نحن نحتاج في صدد حديثنا عن التاريخ الاجتماعي والعمراني لهذه المناطق إلى تبني منطومةمفاهيمية محلية بعيدة نوعا ما عن ما يتم تداوله أو إسقاطه استنادا الى الدراسات التي نشات في بيئات مختلفة، ولكن هذا لايمنعنا من الاستفادة منها في إطار وحدة الفكر البشري الذي يستند إلى أسس عامة موحدة.

**الإحالات والمراجع:**


1. ابن خلدون .(2006) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر، المجلد السادس، درا الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
2. ابن منظور(2008).لسان العرب، المجلد الثاني، دار الفكر، بيروت، لبنان.
3. اسماعيل العربي .(1983) الصحراء الكبريوشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر .
4. بشير طلحة(2006). البني التقليدية وعلاقتها بالتقسيم الاجتماعي للمجال الحضري،قسم علم الاجتماع، جامعة بوزريعة، الجزائر.
5. بشير طلحة(2016)، وضعية القصور الصحراوية في ظل التطور العمراني، مجلة علوم الانسان والمجتمع، الجزائر، المجلد5، العدد3.
6. جاكلين بوجوقاريني (1989). الجغرافية الحضرية، ترجمة : عبد القادر حليمي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
7. الحسن بن محمد الوزان الفاسي (1983). وصف افريقيا، ترجمة : محمد حجي ومحمد الاخضر، الطبعة الثانية، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان.
8. سلامى باهي و طلحة بشير (2009). المدينة في الفكر الخلدوني، مجلة العلوم الاجتماعية، العدد 2، قسم علم الاجتماع، جامعة عمار ثليجي، الاغواط.
9. علي حملاوي (2006) .نماذج من فصور مدينة الاغواط دراسة تاريخية واثرية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، رغاية، الجزائر.
10. محمد الجوهري وعلياء شكري .(1994) علم الاجتماع الريفي والحضري، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية.
11. محمد بومخلوف (2001). التحضر، دار الامة، الجزائر.
12. Capot-reyrobert (1953). le Sahara Français , puf , paris .
13. Gautier E.F (1908). Le Sahara algérien, Libraire Armand Colin, Paris .
14. JaenBisson (2003). Mythes et Réalités d'un desert convoité LE SAHARA , paris L'Harmattan .

15. Kouzmine Y(2007). Dynamiques et mutations territoriales du Sahara algérien, vers de nouvelles approches fondées sur l'observation , Thèse de doctorat en géographie, Université de Franche-Comté.

16. Marc Cote (2001). Dynamique urbaine au sahara , Insaniyat N°13 , janvier-avril.

17. Marc Cote (2005). La ville et le désert, le Bas-Sahara algérien, Paris – Aix-en-Provence, Karthala – EMAM .

18. YankelFijalkow (2007). Sociologie des villes , La Découverte .

19. Yves Grafmeyer (2015). Sociologie urbain , Armand Colin , Paris.